الفصل الثالث
الحياة الثقافية

obeikandl.com

obeikandl.com

يلاحظ دارسو الآداب ، والمتتبعون لتاريخ العلوم أنَّ الحركة الثقافية لا تسير فى خط مواز دائما للحركة السياسيّة ؛ فقد يكون الرقُّى السياسى مصدر الرقُىّ الأدبى ، وقد يكون الانحطاط السياسى مصدر الرقُىّ الأدبى أيضا ، والقرن الرابع الهجرى دليل واضح على أنَّ الصلة بين الأدب والسياسة قد تكون صلة عكسيّة

فى كثير من الأحيان [١] ؛ فالدولة العبّاسيّة - فى عهودها المتأخّرة - ضعفت سلطتها المركزيّة ، وتمزّقت وحدتها السياسيّة ، وأصبح تاريخها هو تاريخ الإمارات التى انشقّت عنها ، وإذا كانت هذه الدويلات المنشقّة قد أتت على بنيان دولة العرب من القواعد فقد ظلّت الحركة الثقافيّة - فى رُقِيّها ونهوضها - امتدادًا موصولا بالحركة الثقافية الرائعة فى العصر العبّاسى الأول ؛ وذلك بفضل تنافس الملوك والأمراء فى نشر العلم ، ورعاية العلماء ، ومشاركة بعضهم فى فنون من القول والفكر .

وفى عهد المماليك استمرّت الحركة الثقافيّة قويّة ونشطة ، بالرّغم مما أصابها من تقليد فى الفكر ، وتصنُّع فى الأسلوب ؛ فالأدب مرآة حياة المجتمع ، والمعبر عن قضاياه وشواغله ، ولا بُدَّ من أنْ يعتريه من التغيّر بقدر ما تصدّع من بنيان الأمّة ، فى وقت غابت فيه السيادة العربية ، والقيادة الرشيدة ، وصار الأمر فى أيد أعجميّة تعمل - غالبا - لصالحها من دون الناس .

والاحتياط محتوم فى ترديد ما اعتاد أكثر مؤرخى الأدب والباحثين من وصف العصور التى تلت نكبة بغداد ، على أيدى المغول ، فى سنة ٦٥٦ هـ بأنَّها عصور الضعف الثقافى ، والانحطاط الأدبى ، والانهيار الفكرى ؛ فإنَّ أمراء المماليك بذلوا جهودا طيّبة فى سبيل رقى العلوم ، والنهوض بها ، ولم يخل عصر واحد منهم من تشييد مدرسة ، أو بناء جامع ، فيه مدرسة وخزانة كتب ، أو تأسيس كُتَّابٍ للأطفال ، أو دار لتحفيظ الأيتام القرآن الكريم ، أو دار يدرس فيها طلاب العلم الحديث الشريف ، وأوقفوا قرى وضياعا ينفق من وارداتها على مراكز الثقافة ، ومن أمثلة ذلك :

---

(١) من تاريخ الأدب العربى ، لطه حسين ١ / ٣٩ .

البِيمَارِسْتَان العظيم [١] الذى بناه الملك المنصور [٢] ، وأعدَّ فيه المرافق ، والأدوية ، ورتّب فيه الأطباء للعلاج ، والعلماء للتدريس ، وأوقف عليه أوقافا عظيمة [٣] .

أمر حسام الدين لاجين بتجديد جامع أحمد بن طولون ، وأوقف عليه عدّة قرى ، وقرَّر فيه دروس الفقه ، والحديث ، والطب ، وغير ذلك [٤] .

كان فى جامع عمرو بن العاص بضع وأربعون حلقة لإقراء العلم ، لا تكاد تبرح منه ، ولم يكن الجامع الأزهر - وهو أشهر معاهد العلم الإسلاميّة على الإطلاق - مقصورا على أهل مصر وحدها ، بل كان المسلمون يقصدونه ، من كافّة أنحاء العالم الإسلامى ، حتّى من بلاد المغرب ، والهند ، وأواسط إفريقية [٥] .

وأمَّا مدارس القاهرة فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها [٦] ، وفى مدن مصر والشام ، وقراهما بلغت نحوًا من سبعين مدرسة ومعهدا ، ومثل هذا العدد فى الأصقاع ، والولايات التابعة للمماليك [٧] الذين استحدثوا مراكز جديدة للتعليم ، لم تكن معروفة من قبل ، فإلى جانب المساجد ، والمدارس ، والزوايا ، والكتاتيب ، والبيمارستانات اتّخذ المماليك من المقابر مراكز لطلب العلم ، سمَّاها التُّجَيْبِى [٨]

---

(١) البيمارستان ، أو المارستان : دار المرضى . انظر : ترتيب القاموس المحيط ٤ / ٢٢٩ ، والألفاظ الفارسية المعربة ٣٣ ، واللفيف المجموع ٥٢ ، وانظر Dozy : Supp. dict. Arab. V. II P. 572.

(٢) سيف الدين ، أبو المعالى ، قلاوون ، الألفى الصالحى (٦٢٠ - ٦٨٩ هـ) مؤسس الدولة القلاوونية ، ومن أكثر ملوكها آثارا وفتوحات . انظر : الوافى بالوفيات ٢٤ / ٢٦٦ ، والبداية والنهاية ١٣ / ٣١٧ ، والأعلام ٥ / ٢٠٣ .

(٣) مستفاد الرحلة والاغتراب ، للتجيبى ٤ ، ورحلة ابن بطوطة ٣٧ .

(٤) مستفاد الرحلة ٦ ، والنجوم الزاهرة ٨ / ١٠٧ .

(٥) عصر الانحدار ١٧٤ .

(٦) رحلة ابن بطوطة ٣٧ .

(٧) عصر الانحدار ١٧٤ .

(٨) القاسم بن يوسف بن محمد ، علم الدين ، التُّجَيْبِى ، السَّبْتِى (نحو ٦٧٠ - نحو ٧٣٠ هـ) محدّث ، عالم ، رحّالة ، انتقى له الذهبى مائة حديث عن مائة شيخ . انظر : الوافى بالوفيات ٢٤/١٧٣ ، والدرر الكامنة ٣ / ٢٤٠ ، وفهرس الفهارس والأثبات ، للكتانى ١ / ٢٦٤ .

«الروضات» ، ووصف منها روضة الملك الصالح [١] ، وروضة الملك المنصور [٢] .

يضاف إلى كل تلك المراكز الندوات العلميّة ، والمجالس الأدبيّة التى دأب العلماء على عقدها فى بيوتهم ، وبساتينهم ، فتجرى فيها المناظرات ، والمحاورات ، وتلقى فيها الدروس على الدارسين ، ويؤدى فيها الطلبة امتحانات الكفاءة [٣] .

يحدّثنا ابن كثير [٤] عن واحدة من تلك الندوات ، قال [٥] : « دُعِيتُ إلى بستان الشيخ العَلاَّمَة كمال الدين ابن الشريشى [٦] شيخ الشافعيّة ، وحضر جماعة من الأعيان ، منهم : الشيخ العلاّمة شمس الدين ابن الموصلى الشافعى [٧] ، والشيخ الإمام العلاَّمة صلاح الدين الصفدى وكيل بيت المال ، والشيخ الإمام العلاَّمة شمس الدين الموصلى الشافعى [٨] ، والشيخ الإمام العلاّمة مجد الدين محمد بن يعقوب

---

(١) أبو الفتوح ، أيوب بن محمد ، نجم الدين (٦٠٣ - ٦٤٧ هـ من أعظم ملوك الأيوبيين ، وأشجعهم ، مات فى المنصورة وهو يقاتل الصليبيين ، وله آثار كثيرة . انظر : مرآة الزمان ٨ / ٢ / ٧٧٥ ، والوافى بالوفيات ١٠ / ٥٥ ، وشفاء القلوب ، للحنبلى ٣٢٩ ، والأعلام ٢ / ٣٨ .

(٢) انظر : مستفاد الرحلة والاغتراب ٥ .

(٣) مستفاد الرحلة والاغتراب ٢٠ .

(٤) أبو الفداء ، إسماعيل بن عمر ، عماد الدين (٧٠١ - ٧٧٤ هـ) حافظ مفسّر ، فقيه ، مؤرخ ، أشهر كتبه البداية والنهاية . انظر : الأعلام ١ / ٣٢٠ ، ومعجم المؤلفين ٢ / ٢٨٣ .

(٥) البداية والنهاية ١٤ / ٢٩٥ .

(٦) أبو العبّاس ، أحمد بن محمد بن أحمد ، كمال الدين ، البكرى ، الشافعى ، المعروف بابن الشريشى (٦٥٣ - ٧١٨ هـ) وكيل بيت المال بدمشق ، وشيخ دار الحديث الأشرفيّة ، وناب فى القضاء ، شاعر ، أديب ، من بيت علم وكرم . انظر : أعيان العصر ١ / ٣١٧ ، والوافى بالوفيات ٧ / ٣٣٧ ، والبداية والنهاية ١٤ / ٩١ ، والدرر الكامنة ١ / ٢٤٦ ، والمنهل الصافى ٢ / ٧١ ، والنجوم الزاهرة ٩ / ٢٤٣ ، والدارس ١ / ٢٥ ، وشذرات الذهب ٦ / ٤٧ .

(٧) محمد بن محمد بن عبد الكريم ، شمس الدين ، ابن الموصلى ، البعلى (٦٩٩ - ٧٧٤ هـ) فقيه ، أديب ، من كتبه بهجة المجالس ورونق المجالس انظر : الأعلام ٧ / ٣٩ ، ومعجم المؤلفين ١١ / ٢٣٥ .

(٨) محمد بن عبد الله بن على بن المعافى ، شمس الدين الموصلى ، ثم الدمشقى (ت ٧٧١ هـ) ولى إمامة العادلية ، بدمشق ، وكان له حانوت يتّجر فيه ، وأضِرَّ بأخرة ، ويبدو أنّ حاجى خليفة أخطأ =

الشيرازى ، من ذريّة الشيخ أبى إسحاق الفيروزبادى [١] ، من أئمة اللغويين ، والخطيب الإمام العلاَّمة صدر الدين ابن العزّ الحنفى [٢] ، أحد البلغاء الفضلاء ، والشيخ الإمام العلاَّمة نور الدين على بن الصارم [٣] أحد القرّاء المحدّثين البلغاء ، وأحضروا نيّفًا وأربعين مجلّدًا من كتاب المنتهى [٤] فى اللغة للتميمى البرمكى [٥] ، وَقْف الناصريّة ، وحضر ولد الشيخ كمال الدين ابن الشريشى ، وهو العلاَّمة بدر الدين محمد [٦] ، واجتمعنا كلُّنا عليه ، وأخذ كلٌّ منَّا مجلَّدًا ، بيده ، من تلك المجلَّدات ، ثم أَخَذْنَا نسأله عن بيوت الشِّعْر المستشهد عليها بها ، فينثر كُلاًّ منها ، ويتكلَّم عليه بكلام مبين مفيد ؛ فجزم الحاضرون والسامعون أنَّه يحفظ جميع شواهد اللغة ، ولا يشذُّ عنه منها إلاَّ القليل الشاذ ، وهذا من أعجب العجائب » .

= فى نسبة كتاب الكامل فى الفقه إليه وهو لجدّه المعافى ، كما فى الدرر ، وأخطأ - أيضا - فى تاريخ وفاته ، وهو خطأ كثير جدّا فى كشف الظنون . راجع : الدرر الكامنة ٣ / ٤٧٨ ، ومعجم المؤلفين ١٠ / ٢٥٠ ، نقلا عن كشف الظنون ، وهديّة العارفين .

(١) أبو طاهر ، محمد بن يعقوب ، مجد الدين ، الشيرازى (٧٢٩ - ٨١٧ هـ) صاحب القاموس المحيط ومن أئمة اللغة ، والأدب ، والتفسير .

انظر : الأعلام ٧ / ١٤٦ ، ومعجم المؤلفين ١٢ / ١١٨ .

(٢) على بن على بن محمد بن أبى العزّ الحنفى (٧٣١ - ٧٩٢ هـ) قاضى القضاة بدمشق ، ومصر ، من مؤلفاته « التنبيه على مشكلات الهداية » فى الفقه والنور اللامع فيما يعمل به فى الجامع » . انظر : الأعلام ٤ / ٣١٣ ، ومعجم المؤلفين ٧ / ١٥٦ ، ولقبه فيه « علاء الدين » .

(٣) لم أهتد إلى معرفته .

(٤) هو معجم منقول من صحاح الجوهرى ، بترتيب مختلف ، قيل إنّه مرتب بحسب أوائل الكلمات ، وقيل مرتب بحسب الأواخر ، وما قبل الأخير ، وما قبله وهو معنى قول الذين كتبوا عنه : « أغرب فى ترتيبه » منه جزء فى مكتبة إبراهيم حمدى الخربوطلى أمين مكتبة عارف حكمة الله ، بالمدينة المنورة ، ومنه بعض وريقات مصوّرة فى معهد المخطوطات العربية . انظر : معجم المعاجم ٢٤٥ .

(٥) أبو المعالى ، محمد بن تميم ، البرمكى ، اللغوى (ت بعد ٣٩٧ هـ) من أقران الجوهرى ، وصاحب معجم المنتهى فى اللغة .

انظر : معجم المؤلفين ٩ / ١٣٨ .

(٦) أبو بكر ، محمد بن أحمد بن محمد ، بدر الدين ، ابن الشريشى (٦٩٤ - ٧٦٩هـ) قاضى حمص ، ودرّس فى البادرائية ، والشاميّة البرانية ، وناب فى الحكم ، له شرح المنهاج ، وزائد الحاوى الصغير ، وله خطب ، ونظم ، ولقبه فى مصادر ترجمته جمال الدين .

انظر : الأعلام ٥ / ٣٢٨ ، ومعجم المؤلفين ٨ / ٣١٦ .

وكانت المكتبات العامة ، وخزائن الكتب تَمُدُّ مراكز الثقافة بالمراجع ، وبخاصّة بعد تقدُّم صناعة الورق ، وظهور حرفة نسخ الكتب ، وبيعها .

ومن سلاطين المماليك من تشبّه بالخلفاء العبّاسيّين ؛ فحرص على عقد المجالس العلميّة ، والدينيّة ، بالقلعة مرّة ، أو مرّتين فى كل أسبوع ، حيث يُطْرح للبحث مختلف المسائل ، والمشكلات العلميّة ، والدينيّة ، ويتناقش فيها الحاضرون من كبار الفقهاء والعلماء ؛ ولذلك نسمع عن بعض أمراء المماليك ، وأبنائهم ، والحكّام التابعين لهم أنّهم اشتغلوا بالعلم ، وتصدّى بعضهم للإقراء ، والتدريس [١] ، أذكر منهم :

الملك المؤيد [٢] صاحب التصانيف الكثيرة فى الجغرافية والتاريخ ، وله مشاركة فى غيرهما من العلوم كالتفسير ، والأُصلين والنحو ، والفقه ، والهيئة ، والمنطق ، والطب ... والملك الناصر محمد بن قلاوون وجدت له إجازة من ابن مشَرِّف [٣] بخط البرزالى [٤] ، وأجاز له غيره ، وسمع من ست الوزراء [٥] ، وابن الشّحْنة [٦] ، وخرّج له بعض المحدثين جزءا فى الحديث [٧] .

---

(١) انظر : العصر المماليكى ٣٤٢ .

(٢) أبو الفداء ، إسماعيل بن على بن محمود ، الأيوبى ، عماد الدين (٦٧٢ - ٧٣٢ هـ) ملك حماة ، علم ، أديب ، شاعر ، وأشهر كتبه تقويم البلدان والمختصر فى أخبار البشر . انظر : الوافى بالوفيات ٩ / ١٧٣ ، والأعلام ١ /٣١٩ ، ومعجم المؤلفين ٢ / ٢٨٢ .

(٣) محمد بن أبى العزّ بن مشرف ، شهاب الدين ، ابن بيان ، الدمشقى ، البزاز الأنصارى (٦٢٠ - ٧٠٧ هـ) محدّث ، شيخ الرواية بالدار الأشرفيّة .

انظر : أعيان العصر ٤ / ٥٧٣ ، والوافى بالوفيات ٤ / ٩٤ ، والدرر الكامنة ٤ / ٤٩ ، وشذرات الذهب ٦ / ١٦ .

(٤) أبو محمد ، القاسم بن محمد ، علم الدين ، الإشبيلى ، ثم الدمشقى (٦٦٥ - ٧٣٩ هـ) حافظ ، محدّث ، مؤرخ ، له مؤلفات كثيرة ، منه ذيل على تاريخ أبى شامة ، والمعجم الكبير ، والأربعون البلدانيّة ، وثَبْت فى بضع وعشرين مجلّدا . انظر : الوافى بالوفيات ٢٤ / ١٦١ ، وأعيان العصر ٤ / ٤٩ ، والأعلام ٥ / ١٨٢ ، ومعجم المؤلفين ٨ / ١٢٤ .

(٥) أم عبد الله ، ست الوزراء بنت عمر بن أسعد بن المُنَجّى ، التنوخية (٦٢٤ - ٧٠٧ هـ) فقيهة ، محدّثة ، ومسندة العصر . انظر : الوافى بالوفيات ١٥ /١١٧ ، وأعيان العصر ٢ / ٣٩٨ ، والأعلام ٣ / ٧٨ .

(٦) أبو العباس ، أحمد بن نعمة ، شهاب الدين ، المعروف بابن الشُّحْنة (نحو ٦٢٠ - ٧٣٠ هـ) محدّث ، معمّر . انظر : أعيان العصر ١ / ٤٠٥ ، والوافى بالوفيات ٨ / ٢١٨ ، والبداية والنهاية ١٤ / ١٥٠ ، والدارس ١ / ٨٣ ، وشذرات الذهب ٦ / ٩٣ .

(٧) شذرات الذهب ٦ / ١٣٥ .

والأمير تُنْكُز [١] سمع صحيح البخارى مرارا من ابن الشِّحْنَة ، وسمع كتاب الآثار للطحاوى [٢] ، وصحيح مسلم ، وسمع من عيسى المطعِّم [٣] ، وأبى بكر بن عبد الدائم [٤] ، وحدَّث بثلاثيّات البخارى [٥] ، وقرأها عليه الْمَقْرِيزِى [٦] ، بالمدينة المنورّة .

ومن غير الأمراء والحكام ، من المماليك ، وممن ينحدرون من سلالة الأتراك نبغ عدد كبير من العلماء فى كل العلوم والآداب فكان منهم : الإمامان : الذهبى [٧] ، والعَدِيمى [٨] .

---

(١) أبو سعيد ، سيف الدين ، الأشرفى ، الناصرى (ت ٧٤١ هـ) الأمير الكبير ، نائب السلطان بدمشق . انظر : أعيان العصر ٢ / ١١٦ ، والوافى بالوفيات ١٠ / ٤٢٠ ، وتحفة ذوى الألباب ٢/٢٣١ ، وفوات الوفيات ١ / ٢٥١ ، والبداية والنهاية ١٤ / ٢٥١ ، والدرر الكامنة ١ / ٥٢٠ ، والمنهل الصافى ٤ / ١٥٦ .

(٢) هو كتاب شرح معانى الآثار ، لأبى جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوى (٢٣٩ - ٣٢١ هـ) جمع فيه الآثار المأثورة عن النبى ﷺ فى الأحكام التى يظنّها الملاحدة متناقضة ، ينسخ بعضها بعضا . انظر كشف الظنون ٢ / ١٧٢٨ ، والأعلام ١ / ٢٠٦

(٣) أبو محمد ، عيسى بن عبد الرحمن ، شرف الدين (٦٢٦ - ٧١٧ هـ) محدّث ، معمّر . انظر : تالى وفيات الأعيان ١٨٧ ، وأعيان العصر ٣ / ٧١٦ ، والدرر الكامنة ٣ / ٢٠٤ ، وشذرات الذهب ٦ / ٥٢ .

(٤) أبو بكر بن أحمد بن عبد الدائم بن نعمة المقدسى (٦٢٦ - ٧١٨ هـ)

محدّث ، من شيوخ الحنابلة ، انقطع بموته جملة من المرويّات ، كان ذا همّة وجلادة وسعى فى سبيل الرزق ، فلقّبوه بالمحتال ، وأضرّ بأخرة .

انظر : معجم الشيوخ ٢ / ٤٠٢ ، والمعين ٢٣١ ، وذيل العبر ٩٨ ، وأعيان العصر ١ / ٧٢٦ ، والوافى بالوفيات ١٠ / ٢٢٢ ، ونكت الهميان ١٣٠ ، والدرر الكامنة١ / ٤٣٨ ، والنجوم الزاهرة ٩ م ٢٤٢ ، والدليل الشافى ٢ / ٨١٣ ، وشذرات الذهب ٦ / ٤٨ ، ودرة الحجال ١ / ٢٢١ .

(٥) الثلاثيات : الأحاديث التى بين مخرّجيها ورسول الله ﷺ ثلاثة أشخاص فقط ، وقد نشرت ثلاثيات البخارى ضمن مجموع « الثلاثيات » .

(٦) عبد القادر بن محمد بن تميم ، محيى الدين ، المَقْرِيزِى (نحو ٦٧٧ - ٧٣٢ هـ) فقيه ، محدّث ، كان شيخ دار الحديث للبهاء القاسم ، ابن عساكر . انظر : أعيان العصر ٣ / ١١٩ ، والوافى بالوفيات ١٩ / ٤٢ ، والدرر الكامنة ٢ / ٣٩١ ، والسلوك ٢ / ٣ / ٣٦٥ ، وشذرات الذهب ٦ / ١٠٢ .

(٧) أبو عبد الله ، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز ، شمس الدين ، الذهبى (٦٧٣ - ٧٤٨ هـ) حافظ ، مؤرخ ، محدّث ، من المكثرين فى التأليف ، أشهر كتبه : تاريخ الإسلام ، وقد درسه وقدّم له بترجمة وافية د / بشار عوّاد معروف . انظر : الوافى بالوفيات ٢ / ٢٦٣ ، وأعيان العصر ٤ / ٢٨٨ ، والأعلام ٥ / ٣٢٦ ، ومعجم المؤلفين ٨ / ٢٨٩ .

(٨) أبو سعيد ، بيبرس بن عبد الله ، علاء الدين (٦٢٠ - ٧١٣ هـ) الإمام المحدّث ، حدّث =

والشاعران : الْمُحْيَوِى [١] ، والجَاوُلِى [٢] .

والمؤرّخان : المنصورى [٣] ، وابن تَغْرِى بَرْدِى [٤] .

والخليلان : ابن كَيْكَلْدِىّ [٥] ، وابن إسحاق المالكى [٦] .

وليس من أهداف هذه الدراسة تقديم ثبت بحصر علماء المماليك وأدبائهم ، فهم كثير ، وإنّما الهدف إظهار ما لهم من عناية بالعلم والأدب ؛ لذلك لم يكن من الغريب أنْ يشجّعوا العلم وأهله ، وأنْ يبنوا المدارس المنيفة الهائلة المزخرفة بالذهب الإبريز المفروشة بالرخام المجزَّع البديع الصنعة [٧] .

= بدمشق ، وحلب ، وتفرّد بأشياء . انظر : الوافى بالوفيات ١٠ / ٣٥١ ، وأعيان العصر ٢ / ٧٥ ، والدرر الكامنة ١ / ٥٠١ .

(١) أَيْدَمُر بن عبد الله ، علم الدين التركى (ت ٦٧٤ هـ) شاعر مجيد ، حققت ديوانه لجنة التراث فى دار الكتب المصرية ، وطبعته فى سنة ١٩٣١ . انظر : الوافى بالوفيات ١٠ / ٧ ، والأعلام ٢ / ٣٤ ، ومعجم المؤلفين ٣ / ٢٨.

(٢) الطَّنْبُغَا ، علاء الدين الجاولى (ت ٧٤٤ هـ) أمير له إقطاع ، وشاعر مجيد ، ولا سيّما فى المقطعات ، مدح كثيرا من الحكام والأمراء . انظر : أعيان العصر ١ / ٦١٠ ، والوافى بالوفيات ٣٦٦/٩، وفوات الوفيات ١ / ٢٠٥ ، والدرر الكامنة ١ / ٤٠٧ ، والمنهل الصافى ٣ / ٧١ .

(٣) بيبرس ، ركن الدين المنصورى ، الخطّائى ، الدوادار (ت ٧٢٥ هـ) أمير مؤرخ ، أشهر كتبه زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ، فى ٢٥ مجلدا ، وطبع له التحفة الملوكية . انظر : أعيان العصر ٢ / ٧٩ ، والوافى بالوفيات ١٠ / ٣٥٢ ، والمنهل الصافى ٣ / ٤٧٧ ، وشذرات الذهب ٦ / ٦٦ ، والأعلام ٢ / ٨٠ ، ومعجم المؤلفين ٣ / ٨٥ .

(٤) أبو المحاسن ، يوسف بن تغرى بردى بن عبد الله ، جمال الدين (٨١٣ - ٨٧٤ هـ) أمير ، مؤرخ ، بحّاثة ، له مؤلفات كثيرة ، أهمها النجوم الزاهرة ، والدليل الشافى ، والمنهل الصافى . انظر : الأعلام ٨ / ٢٢٢ ، ومعجم المؤلفين ١٣ / ٢٨٢ .

(٥) أبو سعيد ، خليل بن كَيْكَلْدِىّ بن عبد الله ، العلائى ، صلاح الدين الشافعى (٦٩٤ - ٧٦١ هـ) محدث ، فقيه ، أصولى ، مفسر ، نحوى ، أديب مؤرخ ، إخبارى . انظر : الوافى بالوفيات ١٣ / ٤١٣ ، وأعيان العصر ٢ / ٣٢٨ ، والبداية والنهاية ١٤ / ٢٦٧ ، ووفيات السلامى ١ / ٣٤٩ ، والمنهل الصافى ٥ / ٢٨٢ والأعلام ٢ / ٣٢١ ، ومعجم المؤلفين ٤ / ١٢٦ .

(٦) خليل بن إسحاق بن موسى ، ضياء الدين المالكى (ت ٧٧٦ هـ) تولى الإفتاء فى مصر ، وهو صاحب « المختصر » الشهير فى الفقه المالكى . انظر : الأعلام ٢ / ٣١٥ ، ومعجم المؤلفين ١٤ / ١١٣ .

(٧) انظر : مستفاد الرحلة والاغتراب ٣ .

وجرت العادة – عند الفراغ من إنشاء مدرسة – أنْ يُحْتَفَل بافتتاحها احتفالا كبيرًا ، يحضره السلطان والأمراء والأعيان فيجتمعون حول مائدة فاخرة ، ويخلع السلطان على كل من أسهم فى بناء المدرسة من البنّائين والمهندسين والمعلمين ، ويعيِّن لها موظفيها من المدرِّسين والفقهاء والمؤذنين والقرَّاء والفرَّاشين .

وكانت وظيفة التدريس بالمدرسة جليلة القَدْر ، يخلع السلطان على صاحبها ، ويكتب له توقيعا من ديوان الإنشاء يتضمّن : توجيهات تربويّة ، ونصائح تعليميّة ، وحَثًّا على الاشتغال بالعلم ، كما يُعَيِّن لكل مدرسة معيدًا ، أو أكثر ؛ ليساعد الطلبة على فهم درس الأستاذ ، واستيعابها ، فإذا أتَمَّ الطالب دراسته أجاز له شيخه ، وأصبح أهلا للفُتْيا والتدريس (١) .

وكانت نفقات التعليم كلّها من الأوقاف التى توقف على المدارس ، ومراكز الثقافة ، ويذكر ابن كثير الأجور الرواتب التى كان الأمير سيف الدين مُنْكُلِى بُغَا – نائب السلطان – يدفعها من أوقاف الجامع ؛ فجعل من الطلبة – من جميع المذاهب – خمسة عشر طالبا ، لكل طالب فى الشهر عشرة دراهم ، وللمعيد عشرون ، ولكاتب الغيبة عشرون (٢) ، وللمدرس ثمانون (٣) .

وكانت الدراسة فى ذلك الوقت على مستويين متمايزين : ما يدرسه المماليك وينشّئون عليه ، وما يدرسه عامة الناس .

كان تعليم المماليك فى ساحة الإيوان بالقلعة ، حيث يحفظون القرآن الكريم ، ويتعلّمون الكتابة ، والخط ، وآداب الشريعة ، وشيئا من الفقه ، وفى سنّ البلوغ يتعلّمون ركوب الخيل ، واستعمال السلاح ، ويتدرّبون على القتال ، وإصابة الأهداف ، وأنواع الحروب ، ويخضعون لرقابة مشدّدة فى حياتهم وفى مأكلهم ، وملبسهم ، فإذا ما أتمّ المملوك تعليمه ، وتدريبه أعتقه أستاذه ، وينقل إلى الخدمة ، ويرقّى فى أطوارها رتبة ، بعد رتبة حتى يصبح من الأمراء (٤) .

---

(١) العصر المماليكى ٣٤٣ ، وأدب الدول المتتابعة ١٣٣ .

(٢) كاتب الغيبة ، كان يحضر بكرة وعصرا ، ويكتب اسم من تغيّب ، وينقص من راتبه ما يخص أيام الغياب . انظر : أعيان العصر ٥ / ٦٢٨ .

(٣) البداية والنهاية ١٤ / ٣٢١ .

(٤) انظر : الفصل الثالث « تربية الفارس » من كتاب المماليك ٨٣ – ١٢٧ .

وكان تعليم عامّة الناس فى مراكز العلم المختلفة التى تقدّم للدارسين ثلاثة أنواع من العلوم :

الأول : العلوم النقلية ، وهى العلوم الشرعيّة ، وعلوم الكلام .

والثانى : العلوم اللسانيّة ، وهى علوم اللغة العربية .

والثالث : العلوم العقلية كالطب ، والفلك ، والرياضيات ، وغيرها ؛ فقد كانت المدارس تختلف بحسب موقعها ، والغاية من تأسيسها [١] .

ويؤكد ابن خلدون [٢] أنَّ العلم والتعليم إنَّما هما بالقاهرة [٣] ويعلل لرأيه بقوله [٤] : « واختُصّ العلم بالأمصار الموفورة الحضارة ، ولا أوفر اليوم فى الحضارة من مصر ، فهى أُمُّ العالم ، وإيوان الإسلام ، وينبوع العلم والصنائع » .

وفى الحقيقة أصبحت القاهرة ، فى زمن المماليك « مجمع الوارد والصادر ، ومحطّ رحل الضعيف والقادر » [٥] وبخاصة منذ أنْ أصبحت مقرّ الخلافة العبّاسيّة ، وبالرَّغم من أنَّ الخلافة العبّاسيّة فى القاهرة لم تكن أكثر من مجرّد رمز دينى ، وليس للخليفة من سلطة إلاَّ مباركة السلطان المملوكى ، وتنصيبه ، فقد تنبّه كثير من الباحثين إلى أهميّة وجود الخلافة الإسلاميّة ، وضرورتها لشرعيّة الحكم [٦] ؛ فمنها يستمدُّ الأمراء سلطتهم ، وتحت رايتها تستنفر الجنود للجهاد ، وبأمرها تجمع الأموال ، وتفرض الضرائب ؛ لتحصين البلاد والدفاع عنها .

وقد أصبحت القاهرة محلّ الأمراء والأجناد ، وأرباب الصنائع ، وأهل الأموال والبضائع والذخائر ، واستقرّ بها الفضلاء والنبلاء ، وهاجر إليها علماء المشرق والمغرب ، فوجدوها موطنًا كريما ، وحرمًا آمنًا مضيافا ، ورحّب بهم أبناء

---

(١) انظر : مطالعات فى الشعر المملوكى ٦٤ .

(٢) أبو زيد ، عبد الرحمن بن محمد بن محمد ، ولى الدين الحضرمى (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ) مؤرخ ، فيلسوف ، مؤسس علم الاجتماع ، صاحب المقدّمة الشهيرة ، وكتابه فى التاريخ « العبر وديوان المبتدأ والخبر » . انظر : الأعلام ٣ / ٣٣٠ ، ومعجم المؤلفين ٥ / ١٨٨ .

(٣) المقدمة ٢ / ٥٢٧ .

(٤) نفسه ٢ / ٧٠٩ .

(٥) رحلة ابن بطوطة ٣٦ .

(٦) مستفاد الرحلة والاغتراب ٣ ، والعصر المماليكى ٣٥٤ .

عمومتهم ، ولاقوا فى إقامتهم - من عطف المماليك ، ورعايتهم - ما حبّب إليهم البقاء فيها ؛ فانبسطت نفوسهم ، واطمأنّت قلوبهم ، وطاب لهم المقام بها ، فأخذوا يكتبون ، ويصنّفون ، وينثرون ، وينظمون ، ويعلّمون [١] .

تعرّضت الثقافة العربية فى العصور الوسطى إلى نكبتين داهمتين :

أولاهما : فى المشرق ، بعد سقوط بغداد فى أيدى المغول ، فى سنة ٦٥٦ هـ .

وثانيتهما : فى المغرب ، بعد أنْ أخذ الإسبان يُخْرِجُون العرب من ديارهم ، وأرضهم ، ويفتنونهم فى دينهم ، حتى تمَّ لهم الاستيلاء على غرناطة ، آخر معاقل المسلمين ، وحصونهم ، فى الأندلس ، فى سنة ٨٩٧هـ ، وأصبحت الأندلس أرضا بلا إسلام ، وأصاب كنوزها العلمية والأدبية ما أصاب كنوز بغداد ، من تلف وضياع ، وما تعرضت له من حرق وتدمير ، وتجمّع العلماء فى مصر والشام ، وجَدُّوا فى جمع التراث وتدوينه ، وبذلوا جهدا مشكورا ، فى هذه السبيل ، وتركوا للإسلام وللعروبة من المؤلفات والموسوعات ، والبحوث ما يبوِّئهم أسمى مكان ، ويشهد لهم بالفضل والفخار ، وليس من المبالغة فى شىء القول بأنَّ المؤلفات التى كتبت فى العصر المملوكى بلغت عشرات الألوف ، فى مختلف الفنون ، والعلوم ، مازال العرب إلى اليوم عاجزين - أفرادا ، وجماعات ، وحكومات - عن تحقيقها ، ونشرها ، وتيسير سُبل الانتفاع بها ، والدليل على ذلك أنّ أغلب العلماء فى تلك الفترة كانوا من المكثرين فى التأليف ، وأنّ أعدادا كبيرة منهم ألَّف العالم الواحد منهم المئات من الكتب ، وبعض تلك الكتب تتكون من عشرات المجلدات التى تمتلئ بها خزائن الكتب فى العالم ، نذكر منهم على سبيل المثال ابن تيمية [٢] ،

---

(١) الحياة الأدبيّة فى مصر « العصر المملوكى والعثمانى » ١٤ .

(٢) أبو العبّاس ، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ، تقى الدين ابن تيمية الحرّانى (٦٦١ - ٧٢٨ هـ) حافظ ، فقيه ، مفسر ، مجتهد . انظر : أعيان العصر ١ / ٢٣٨ ، والوافى بالوفيات ٧ / ٢٢ ، والأعلام ١ / ١٤٤ ، ومعجم المؤلفين ١ / ٢٦١ ، و١٣ / ٣٦١ .

ومحمد بن أحمد ، الذهبى ، والتقى السبكى [١] ، والصفدى ، وغيرهم [٢] .

وكان لهذه النهضة العلميّة والأدبية أثر واضح فى تقدّم الحضارة العربيّة ، فى ذلك الوقت ، يتجلّى ذلك فى :

* تعبيد الطرق ، وتمهيدها ، وتوسيعها ، وتذليل الصعاب ، وبخاصة فى طريق الحج ، والتجارة ، وتأمين المسالك [٣] .

* العناية بمقدسات المسلمين ، يقول الدكتور زكى محمد حسن : « لا ريب فى أنَّ عصر دولتى المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧ م) هو العصر الذهبى فى تاريخ العمارة الإسلامية ، فى مصر ؛ فقد كان الإقبال عظيما على تشييد العمائر ، من جوامع ، ومدارس ، وأضرحة ، وحمامات ، ووكالات ، وأسبلة ، كما ظهر التنوع ، والإتقان ، والأناقة فى شتّى العناصر المعمارية من : واجهات ، ومنارات ، وقباب ، وزخارف جصيّة ، ورخاميّة » [٤] .

ولم تقتصر العمائر الدينية والمدنية فى عصر المماليك على مصر والشام وحدهما ، بل امتدّت عنايتهما إلى الأماكن المقدسّة فى كل مكان ، وبخاصة ثلاثة المساجد التى تشدّ إليها الرّحال : بيت الله الحرام فى مكة المكرّمة ، ومسجد رسول الله ﷺ فى المدينة المنورة ، ومسجد القدس الشريف .

أمّا بيت الله الحرام فلا نكاد نجد سلطانا أو أميرا إلاّ وله إسهام كبير فى عمارة المسجد ، وكسوة الكعبة ، وبناء دور الضيافة ، والقيام بشئون الحجاج [٥] .

---

(١) أبو الحسن ، على بن عبد الكافى بن على بن تمّام ، الأنصارى ، الخزرجى (٦٨٣ - ٧٥٦هـ) قاضى قضاة الشافعية ، حافظ ، فقيه ، مفسر ، مقرئ ، أصولى ، أديب ، شاعر ، جامع للكثير من العلوم والفنون ، شيخ الإسلام فى عصره . انظر : ذيول العبر ٤ / ١٦٨ ، وذيل تذكرة الحفاظ ٣٩ ، والوافى بالوفيات ٢١ / ٢٥٣ ، وأعيان العصر ٣ / ٤١٧ ، وتذكرة النبيه ٣ / ١٨٨ ، ودرة الأسلاك ٣٩١ ، والوفيات ، للسلامى ١ / ٣٣١ ، والبداية والنهاية ١٤ /٢٥٢ ، وعصر سلاطين المماليك ٣ / ٢٧٧ ، والأعلام ٤ / ٣٠٢ ، ومعجم
المؤلفين ٧ / ١٢٧ .

(٢) بحوث فى تاريخ الإسلام وحضارته ، د / سعيد عبد الفتاح عاشور ٥٠٤ .

(٣) مستفاد الرحلة والاغتراب ٧ ، والنجوم الزاهرة ٩ / ٦٠ .

(٤) انظر : العصر المماليكى ٣٧٣ ، نقلا عن فنون الإسلام ٧١ .

(٥) راجع « مكة » فى فهارس أعيان العصر ٢٩٥ .

وأمّا مسجد رسول الله ﷺ فمن المعروف أنّ المسجد كان قد احترق سقفه ، وأصابه تلف كبير فى رمضان سنة ٦٥٤ هـ ، وأصبح العمل فيه من واجبات السلطان المملوكى فى مصر ، فأعيد بناؤه ، وأصلحت قبابه ، وصُنِع له منبر فاخر ، وتوالت عناية السلاطين والأمراء به فى جميع الأوقات [١] .

وأمّا بيت المقدس فقد نال من اهتمام المماليك وعنايتهم ما لا مزيد عليه [٢] .

* تقدم فنون النحت والحفر والصناعات التقليدية ، والصناعات المعدنيّة والخزفية ، وغيرها [٣] .

* تقدّم الصناعات الحربية من أسلحة ، ودروع ، وسفن ، فمنذ منتصف القرن الخامس الهجرى ، بدأت حركة الجهاد الإسلامى ضد القوات الصليبية الغازية ، فى مصر والشام ، ومن ذلك الوقت والاقتصاد العربى اقتصاد حرب ، يذكر ابن مَمَّاتى [٤] اثنى عشر نوعا من أنواع الحديد ، وأربعة وأربعين نوعا من أنواع الأخشاب التى تُصَنَّع منها الأسلحة والسفن ، وكانت هذه المواد توضع فى « صوامع البضاعة » فى القاهرة ، وكانت تشتمل على « ما لايمكن حصره من الأخشاب ، والحديد ، وآلات الأساطيل ، من القَتَب ، والكتان ، والمنجنيقات » [٥] .

واستطاعت دور الصناعة فى مصر أن تبنى فى عام واحد مائة مركب حربى [٦] ، ويبدو أنّ المماليك كانوا هم أول من أنشَئُوا نظاما للدفاع المدنى ، فبعد حريق القاهرة فى سنة ٧١٧ هـ ، نودى بأنْ يوضع إلى جانب كل حانوت زير ، أو دَنّ كبير يملأ بالماء ؛ لإطفاء الحرائق [٧] ، وهم الذين طبّقوا فكرة الشعب المسلّح ، فبعد

---

(١) راجع : المدينة المنورة ٧٩ .

(٢) راجع : بحوث فى تاريخ الإسلام وحضارته ٥٠٦ .

(٣) راجع : مقال سير توماس أرنولد « الفن الإسلامى وأثره على التصوير فى أوربا » فى كتاب تراث الإسلام ١٦٧ .

(٤) أبو المكارم ، أسعد بن مهذّب بن مينا (ت ٦٠٦ هـ) وزير ، أديب ، كان نصرانيا ، وأسلم ، له قوانين الدواوين . انظر : الوافى بالوفيات ٩ / ١٩ ، والأعلام ١ / ٣٠٢ ، ومعجم المؤلفين ٢ / ٢٤٩ .

(٥) قوانين الدواوين ص ٤٦٤ - ٤٦٥ .

(٦) تاريخ البحرية الإسلامية ٣٢٠ .

(٧) النجوم الزاهرة ٩ / ٦٥ .

استرداد صفد من الصليبيين ، أخليت من أهلها ، وأعيد تقسيم مزارعها ، ومساكنها على سكّانها الجدد من الجنود والمقاتلين القدماء ، وأرباب السيوف ، وحمل إليها من المؤن والسلاح ما يجعلها قادرة على مقاومة المعتدين [١] .

وفى كتب التاريخ ، والأدب ، والرحلات صور من مظاهر الحضارة ، تثير الإعجاب ، فيذكر التُّجَيْبى أنَّه كان فى جامع ابن طولون فى القاهرة ٢٤ طاقة ، بعدد ساعات النهار ، يعرف بها الوقت [٢] ، وفى ترجمة محمد بن بادى بن أبى بكر ، شمس الدين الطِّيبِى كان يصنع فتائل العنبر ، ويهدى إلى أصدقائه منها كثيرا ، وكان يستعمل نظّارة طبيّة ، قال الصفدى [٣] : « أنشدنى من لفظه ، لنفسه فى العيون الزجاج التى يعانيها ، من ضعف بصره ، لرؤية الخط الدقيق ، ويضعها على أنفه :

لَـهْـفِـى عَـلَـى دَوْلَـةِ التَّـصَـابِـى ... وَحُـقَّ لِـى أَنْ يَـزِيـدَ لَـهْـفِـى

كَانَتْ عُيُونِى مِنْ فَوْقِ خَدِّى ... فَالْيَوْمَ أَمْسَتْ مِنْ فَوْقِ أَنْفِى

وكان إبراهيم بن أبى الوحش أول من صنع شراب الورد [٤] .

وهم أول من صنع « التوربين المائى » المستخدم فى إدارة الآلات ؛ فقد صنع الأمير جركس الخليلى وهو أمير آخوركبير [٥] طاحونا فى مركب ، عند بسطة المقياس ، يديرها الماء ، مثل الرّحا وتستخدم فى طحن القمح ، وجَعْلِه دقيقا ، فيأتى الناس إليها أفواجا أفواجا لرؤيتها ، ووصفها الشعراء ، من ذلك وصف الشهاب العطار [٦] لها ، قال [٧] :

---

(١) التحفة الملوكية ٥٥ ، وتاريخ الشعوب الإسلامية ٣٦٩ .

(٢) مستفاد الرحلة والاغتراب ٧ .

(٣) أعيان العصر ٤ / ٣٤٥ .

(٤) نفسه ١ / ١٣٤ .

(٥) أمير آخور : من يشرف على إسطبل السلطان ، ويقوم بأمر ما فيه من الخيل والبغال وغيرها . انظر : صبح الأعشى ٥ / ٤٦٠ .

(٦) أبو العباس ، أحمد بن محمد بن على ، شهاب الدين ، العطار ، الدُّنيْسَرىّ الشافعى (٧٤٦ - ٧٩٤ هـ) شاعر ، أديب ، مدح الأمراء ، ونظم الوقائع ، من كتبه « نزهة الناظر فى المثل السائر » ، وجمع شعره فى ديوان سمّاه « جامع المحاسن » . انظر : الأعلام ١ / ٢٢٥ ، ومعجم المؤلفين ٢ / ١٣٠ .

(٧) بدائع الزهور ١ / ٢ / ٣٠٧ .